وانطلق زهير ومعه ثلّته تلك إلى أندية القوم، حتّى إذا طاف بالبيت وفرغ من طوافه، نادى في الناس: يا أهل مكة! فألقوا إليه بالسمع والبصر والفؤاد. قال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام، ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يُباع لهم ولا يبتاع منهم؟! واﷲ لا أقعد حتّى تشقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. وعلى الأثر انتفش أبو جهل غضباً وصرخ: كذبت، واﷲ لا تُشَقّ. قال له أحدهم: أنت واﷲ أكذب، ما رضينا كتابتها حيث كتبت. وآزره أصحابه ومن ورائهم جمع ممّن شهد هذا الموقف، حتّى تعالى الصياح، وهدر هديراً غرق فيه صوت أبي جهل: طاغية بني مخزوم. وخسئ الجَهُول الغَشُوم. عيي لساناً وحركةً إلاّ َ أن أخذ يضرب كفّاً بكفّ، ويقلّب فيهم عينيه كأنّه مأخوذ ممسوس، وهو يردّد وقد خنقه حنقه: هذا أمر قُضي بليل، هذا أمر قُضي بليل، وتشوور فيه بغير هذا المكان! * * * وماجت الجموع[543]، واختلطت الأصوات، واختلفت الآراء، افترق الناس فرقين عظيمين كما انشقّ بحر فرعون عندما ضربه موسى بعصاه، وعربدت[544] الألسنة من أولئك وهؤلاء عربدةً عشواء، تفصح كإبهام، وتبهم كإفصاح، حتّى لا يُدرى أصياحها الكلام أم كلامها هو الصياح. ثم كان لابدّ من نهاية للرواية، كان لابدّ من طيّ السجلّ، ورفع الأقلام. وعندئذ ظهر أبو طالب إذ قُدّ ِر له أن يكون هو من يجهز على ذلك الجدال، ويضع حدّاً لحيرة الجمهور، من شعبه حيث قطعه استبداد قريش، سعى إلى مكة لينقل إلى سادة قريش قول ابن أخيه عسى أن يكفّوا عن البغي الذي سدروا فيه.